مجلة المنهل ـ المجلد: 08، العدد: 01 (2022 م) ـ ص ص 181 – 194
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

آليات القراءة الحداثية للقرآن الكريم وإشكالية المنهج

The mechanisms of modernist reading of the Holy Qur'an and the problematic of the curriculumin

ط د. سجعي مريم (*)
مخبر الدراسات الشرعية
جامعة تلمسان (الجزائر)
meriemsedj@gmail.com

أد. خليفي الشيخ
مخبر الدراسات الشرعية
جامعة تلمسان (الجزائر)
khelificheikh@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/12/19	2022/03/06	2022/06/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية الآليات المعرفية التي سلكها الحداثيون العرب في قراءة القرآن الكريم ، والتي تختلف رأسا عن تلك القواعد المعروفة والمتداولة في المنظومة الفكرية والتفسيرية عند القدماء والمحدثين من علماء الاسلام ، كون هذه الأخيرة لا تفصح حقيقة عن المراد من القرآن ، ولا تستجيب لاحتياجات الواقع ولا تحقق اضافة نوعية للأمّة العربية ، ولا تحدث النهضة المراد الوصول إليها من وراء ذلك ، كما أنّ هذه الآليات التي اختارها الحداثيون العرب رؤوا أنّها بالضرورة تساعد على فهم صحيح للقرآن والتراث، كون هذه الطرائق والآليات قد تمّ تطبيقها في المجتمعات الغربية ومع التراث الديني الغربي فحقّقت النتيجة المرجوّة منها ، وعليه فإنّ هذه الدراسة تتعرّض ببيان طبيعة هذه الآليات وخلفيتها الفكرية ، كما تتعرض لتقويمها وعرضها على ميزان البحث العلمي .

الكلمات المفتاحية :

الآليات؛ القراءة الحداثية؛ النص القرآني؛ المنهج .

Abstract :

This research paper deal with the cognitive mechanisms used by Arab Modernists in reading the Holy Qur'an which differ basically from those known and applied in the intellectual and interpretive system of the ancient and modern scholars of Islam. As the latter does not really reveal what is meant by the Qur'an and it neither respond the actual needs nor add a qualitative addition to the Arab Nation, consquently the renaissance will not be achieved.

Also, the Modernists thought that these mechanisms chosen by them help to a correct understanding of the Qur'an and the heritage since these mothods and mechanisms had been applied in Western Societies and Western religious heritage.

So,this study aimes to define these mechanisms and its intellectual background and also to evaluate and expose it on the scale of the scientific research.

Keywords:

Mechanisms; modernist reading; the Qur'anic text; Curriculum.

(*) المؤلف المراسل

1. مقدمة

لقد انتشر مصطلح القراءة الجديدة والمعاصرة للقرآن الكريم في الآونة الأخيرة على مستوى الساحة الفكرية ، وأصبح يعدّ من المشروعات التجديدية التي تهدف إلى النهوض والتقدّم والتحرر من التخلف، لكن في حقيقة الأمر لا يراد بهذه القراءة الخروج من الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمّة الاسلامية وإصلاح واقعها الذي اتّسم بالجمود والتقليد ، وإنّما يراد بها الإساءة للإسلام وتشويه صورته باسم التجديد، فباتت بذلك خطرا كبيرا يستهدف ثوابت الأمّة ومقدّساتها وعلى رأسها القرآن الكريم.

ولعلم أعداء الإسلام بمكانة هذا القرآن في قلوب المسلمين وقدرته على إحداث التغيير فيهم فهو رمز وحدتهم وسرّ انتصارهم وتقدّمهم ، ولخوفهم من عودة الأمّة إلى سابق عهدها وإلى أصلها وتاريخها الذي تناسته في ظلّ هذه التحديّات والمؤامرات التي أحيطت بها ، جاءت الدعاوى متضافرة بضرورة فهم جديد ومعاصر لهذا القرآن بما يتناسب مع متطلبات العصر دون تفريق بين متشابه ومحكم أو ما يجوز فيه الاجتهاد وما هو ثابت لا اجتهاد فيه ، وذلك بإحداث القطيعة مع التراث وإلغائه ، وإخضاع النصّ الديني للنقد كسائر النصوص البشرية استنادا إلى مناهج غربية لا ضابط لها ولا علاقة لها بالخصوصية الاسلامية التي تحتكم إلى مرجعيّاتها الدينية ، ناسين بأنّ فهم السلف للقرآن الكريم لا يعني الجمود والتقليد وإنّما هو الأساس للانطلاق في فهم جديد ومعاصر يخدم حاضر الأمّة ومصالحها ، وناسين كذلك أنّ التراث الإسلامي قد ترك لنا من العلوم والمناهج المتخصّصة في التعامل مع النصّ القرآني ما يغنينا عن هذه المناهج الغربية .

وبالتالي سنحاول من خلال هذه الدراسة بيان خصائص هذه القراءة المعاصرة من خلال آلياتها وأدواتها التي تعتمد عليها في دراسة النصّ ألقرآني ، وعرضها على ضوابط القراءة الشرعية لمعرفة مدى انحرافها وغلوّها ، فيتسنّى لنا نقدها وفق هذه الضوابط والمعايير، وقبل ذلك لا بدّ من التذكير بمنزلة القرآن الكريم وقيمته العقدية والأخلاقية والفكرية ، حتّى يتّضح لنا مدى خطورة هذه المسألة وندرك عواقبها، إذ كيف يمكن لمن عرف هذه المكانة العظيمة للقرآن أن يتجرّا عليه سواء بقصد أو بغير قصد !

2. منزلة القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجلّ المنزّل على أفضل الخلق سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلّم بواسطة جبريل عليه السلام ، بلسان عربيّ مبين أفضل الألسنة وأغناها ألفاظا وأوسعها معان ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿192﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿193﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿194﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿195﴾ ﴾ (الشعراء : 192 ، 193 ، 194) .

القرآن الكريم كتاب هداية ومنهاج حياة لقوله تعالى :﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿9﴾ ﴾ (الإسراء : 9) ، منه تستسقى العقيدة الصحيحة ، والشريعة الحقّة ، والأخلاق الكريمة ، فهو منهج شامل لكلّ تعاليم الحياة محقق لسعادة الإنسان في الدارين، وأساس لبناء الدولة القويّة وتاريخنا شاهد على ذلك ، لهذا أوصى النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتمسّك به فقال في حديثه " تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما : كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلّم" (مالك بن أنس، 1412 هـ، صفحة 2) فكلّ ما جاء في القرآن حقّ ، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته بمقتضى قوله تعالى : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿28﴾ ﴾ (الزمر : 28).

إنّ للقرآن الكريم منزلة عظيمة بين الكتب السماوية فهو المهيّمن عليها لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: 48) وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿37﴾ ﴾ (يونس: 37) ، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿111﴾ ﴾ (يوسف: 111).

قال أهل التفسير: مهيمنا ، مؤتمنا وشاهدا على ما قبله من الكتب ومصدقا لها، يعني يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، ولهذا يخضع له كل متمسك بالكتب المتقدمة ممّن لم ينقلب على عقبيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿52﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿53﴾ ﴾ (القصص: 52 ،53) (الحكمي، 1422هـ، صفحة 44) ، فهو كتاب موجّه للبشرية جمعاء أنزله الله تعالى رحمة للعالمين ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿1﴾ ﴾ (الفرقان:1). وتعهّد بحفظه من كلّ تبديل أو تحريف بمقتضى قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿9﴾ ﴾ (الحجر : 9) ، فلم يستطع أعداء الاسلام التشكيك فيه بدعاويهم وافتراءاتهم بالرّغم من الجهود التي بذلوها لذلك ، بل كانوا كمن يغزل وينقض غزله من بعد قوّة .

ولقد عرّف الشاطبي القرآن الكريم بتعريف جامع مانع بقوله أنّ القرآن الكريم هو " كليّة الشريعة ، وعمدة الملّة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، وأنّه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه ، وهذا كلّه لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه ، لأنّه معلوم من دين الأمّة " (الشاطبي، 1997م ، صفحة 144/4)، فمكانة القرآن من المعلوم عند المسلمين بالضّرورة دون

حاجة إلى دليل أو برهان ، وسيبقى اعتقادنا فيه ثابت وخالد فهو مصدر شريعتنا ، وأصل معارفنا ، ومرجعيّنا التي نحتكم إليها في أمور ديننا ودنيانا ، وهو صالح لكلّ زمان ومكان مهما اختلفت الظروف وتنوّعت الثقافات ، ولن تنتهي صلاحيته حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

3. ضوابط القراءة الإسلامية المعاصرة للقرآن الكريم .

إنّ القراءة الإسلامية للقرآن الكريم تنطلق من اعتقاد المسلمين فيه ومكانته في قلوبهم كما أنّ المبدأ الأساس لهذه القراءة هو التفريق بين المحكم والمتشابه بمقتضى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿7﴾ ﴾ (آل عمران:7) فالمحكم ما كان معناه ظاهرا بيّنا لا يحتاج إلى قراءة جديدة وهو يشمل جلّ آيات القرآن الكريم ، أمّا المتشابه فلا يجوز لغير أصحاب العلم وهم الراسخون أن يجتهدوا فيه ويستنبطوا منه ما حجب عن غيرهم من أحكام جديدة تخدم الواقع المتجدّد ، ولكن في حدود عالم الشهادة أمّا حقائق عالم الغيب فقد اقتصر العلم بها على الله تعالى ، وما المطلوب فيها سوى التسليم والإيمان بها كما جاءت دون تفسير أو تأويل ومن حكمة المولى عزّ وجلّ جعل عدد هذه الآيات قليل جدّا مقارنة بالمحكم منها .

وبالتالي فإنّ هذه القراءة المعاصرة في المنظور الإسلامي لها ضوابط وقوانين تحكمها قواعد قرّرها علماء الأصول والمتخصّصون في علوم القرآن ، وعلى رأسهم الشاطبي الذي وضع شروطا للعملية التأويلية سواء ما تعلّق منها بالمجتهد الذي يمارس التأويل أو بالتأويل نفسه وكذلك فصّل في المسألة ابن رشد الذي سنركّز على شروطه باعتبار أنّ الحداثيين يرون فيه " المنفرد بالعقلانية والتفلسف والتأويل في تاريخ الاسلام " (عمارة، 2010، صفحة 174)، مع التنبيه على أنّ هذه الشروط لا تختلف عمّا ورد عند غيره من الأصوليين وأصحاب العلم ، وما تقديمنا له إلّا للاعتبار المذكور آنفا ، ونظريته في القراءة أو التأويل لها عدّة معالم هي (النكر، 2013 ، صفحة 28):

– أنّ التأويل جائز في المواطن التي يقوم فيها البرهان على استحالة الظاهر.

– لابدّ من تحقّق شروط اللغة العربية في المجاز الذي تخرج فيه دلالات الألفاظ من حقيقتها إلى مجازها، وفيما لم يثبت فيه اجماع يقينيّ على أنّ المراد هو ظاهر الألفاظ وبترجيح دلالات ظواهر بعض النصوص على مواطن التأويل في بعضها.

– الجمع بين المعقول والمنقول ، لا المقابلة بينهما ، والانحياز لأحدهما ، تجاوزا للآخر ونفيا له .

– يظلّ التأويل حقّا للخاصّة من الراسخين في العلم ، لا يصرّح به للعامّة ولا يثبت في كتب الجمهور حتى ولو كان تأويلا صحيحا مستجمعا لشروط التأويل وضوابطه.

– أخبار الغيب ، وكذلك المعجزات ، ومبادئ الشريعة ، وكلّ ما لا يستطيع العقل الإنساني الاستقلال بإدراك كنهه ، يؤخذ على ظاهره دون تأويل ، لأنّ هذه العقائد عنده ممّا تعلم بنفسها .

– لا يجوز الإفراط في التأويل لأنّ هذا الإفراط بعد العصر الأوّل للأمّة هو المسؤول عن أمراض الاضطراب والفرقة والتكفير التي شاعت وانتشرت ، فالصدر الأوّل إنّما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل (التي تثبتت في الكتاب العزيز) دون تأويلات فيها ، ومن وقف منهم على تأويل لم يصرّح به ، وأمّا من أتى بعدهم فإنّهم لما استعملوا التأويل قلّ تقواهم ، وكثر اختلافهم وارتفعت محبّتهم ، وتفرّقوا فرقا (النكر، 2013 ، صفحة 28).

إنّ القراءة المعاصرة للقرآن الكريم في المنظور الإسلامي جائزة ، لكن مع ضوابط حتى لا يخرج المعنى عن مراده ومقصده ، وهذا لا يعني أنّ مفاهيم النصوص ثابتة وإنّما منها ما هو ثابت كالعقائد والشرائع والغيبيات التي لا مجال للاجتهاد فيها بل نؤمن بها كما وردت دون حاجة إلى تأويل ، ومنها ما هو متغيّر بتغيّر الظروف والمستجدّات كفقه الفروع الذي غايته تحقيق المصالح العامّة والخاصّة .

4. آليات القراءة الحداثية .

تحاول القراءة الحداثية للقرآن الكريم تأسيس فهم جديد للقرآن ، وذلك من خلال إحداث قطيعة معرفية ومنهجية مع تراث السلف الصالح من علوم القرآن والأصول والتفسير ومحاولة إخضاع القرآن لمناهج غربية نشأت في بيئة غير البيئة الإسلامية ، وفي ظروف لم تستدعها الحاجة الفكرية في العالم الإسلامي، وسنقتصر في هذه الدراسة على أهمّ المناهج والآليات وذلك من خلال بيان مفاهيمها وتطبيقاتها في الفكر العربي دون التعرّض لأصولها وجذورها التاريخية في الفكر الغربي ، ومن بين هذه الآليات:

1،4. التاريخية :

تعدّ التاريخية من أهمّ آليات القراءة الحداثية للنصوص فهي مبدأ أساسي تقوم عليه باقي المناهج والأدوات حيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أنّه " لا سبيل إلى تمرير القراءة الحداثية للتراث إلّا من خلال التأكيد على نسبيته ، ولا سبيل إلى ذلك إلّا من خلال إثبات تاريخيته ، ومن ثمّ يمكن مقاربته مقاربة نقدية" (القرني، 1434هـ، صفحة 139) والتاريخية في مفهومها العام هي " نزعة فكرية تضفي النسبية والزمنية على الحقيقة ، وتربطها بتاريخها وزمنها ، رافضة أن تكون للحقائق أيّة عمومية أو ديمومة أو

إطلاق أو خلود ، معمّمة هذا الحكم على كلّ ألوان الحقائق بما فيها الحقائق الدينية " (عمارة، 2010، صفحة 159).

ظهرت هذه النزعة في الغرب كردّة فعل على السلطة الدينية للكنيسة التي كانت تفرض هيمنتها وسيطرتها على المجتمع المسيحي باسم الدين وتلغي العقل والعلم كمصدر للمعرفة ، فعبّرت بذلك عن واقعهم ومتطلباته وعن أسبابهم التي فرضت هذا النوع من القطيعه ، لكن أصحاب هذه النزعة من المفكّرين العرب يرون " أنّ التاريخية ليست مجرّد لعبة ابتكرها الغربيون من أجل الغربيين ، وإنّما هي شيء يخصّ الجنس البشري منذ أن ظهر الجنس البشري على وجه الأرض ، ولا توجد طريقة أخرى لتفسير أي نوع من أنواع ما ندعوه بالوحي أو أي مستوى من مستوياته خارج تاريخية انبثاقه وتطوره أو نموّه عبر التاريخ " (أركون، 2001م ، صفحة 48) ، وبالتالي فالتاريخية ليست حكرا على الغرب فقط الذين كانت لهم أسبابهم ودوافعهم في تبنّيها كسلاح للثورة على الحكم الكهنوتي ، وإنّما هي ضرورية ولازمة لقراءة أي وحي إلهي حتى القرآن الكريم ، بل إنّ " أهمّ شيء أتى به العلم الحديث بخصوص القرآن هو تورخته ... إنّ هذه التورخة تعين كثيرا على فهم تطوّر المعاني التي أتت بها الدعوة المحمّدية" (جعيط، 2007م ، صفحة 185)، فالتاريخية شرط أساسي لقراءة معاصرة للقرآن إذ لا يمكن استيعاب مفاهيمه ومضامينه في العصر الحديث بدونها ، فالتاريخ هو من يحدّد الحقيقة ، والمعرفة الحقيقية هي التي تخضع للظروف التاريخية .

إنّ القول بتاريخية النصّ القرآني يعني أنّه خاصّ بحقبة زمنية محدّدة وبيئة اجتماعية معيّنة ، فهو خطاب متعلّق بتلك المرحلة وغير ملزم لما بعدها ، لأنّ مفاهيم ومعاني الألفاظ تتغيّر بتغيّر الظروف ، وبالتالي لا بدّ من إخضاعها لهذا الواقع المتغيّر حتى تتناسب معه ومع متطلّباته ، وهذا التصوّر نتج عنه تبعات أخرى كاعتبار القرآن منتج ثقافي إنساني يعبّر عن لغتهم وثقافتهم ، إذ " لا يمكن أن نتحدّث عن لغة مفارقة للثقافة والواقع ، ولا يمكن من ثمّ أن نتحدّث عن نصّ مفارق للثقافة والواقع أيضا طالما أنّه نصّ داخل إطار النظام اللغوي للثقافة ، إنّ ألوهية مصدر النصّ لا تنفي واقعية محتواه ولا تنفي من ثمّ انتماءه إلى ثقافة البشر" (أبو زيد، 2014م، صفحة 24)، وهذا يفضي إلى القول ببشرية النصوص الدينية ، لأنّ الواقع والثقافة واللغة هي من أنتجته ، أي أنّ النصّ تابع للواقع ومنبثق عنه ، وبالتالي فهو نصّ تاريخي كسائر النصوص البشرية التي تخضع في تشكّلها للواقع وتتغيّر بتغيّره .

كما مسّت هذه التاريخية العقائد الدينية وجعلت منها مجرّد " تصوّرات أسطورية مرتهنة بمستوى الوعي وبتطوّر مستوى المعرفة في كلّ عصر ولا شكّ أنّ النصوص الدينية اعتمدت شأنها شأن غيرها من النصوص ... في صياغة عقائدها على كثير من التصوّرات الأسطورية في وعي الجماعة التي توجّهت

لها النصوص بالخطاب " (أبو زيد، 1995م، صفحة 134) ، فالعقائد ليست حقيقة ثابتة بل هي أيضا تاريخيةّ وهي محض تصوّرات لأساطير أفرزها الواقع ، وبالتالي فإنّ لكل عصر معتقداته النابعة من واقعه.

استلزمت هذه التاريخية أيضا توقيف أحكام الشريعة المحمديّة لأنّها خاصّة به وبعصره ومجتمعه الذي بعث فيه وذلك بسبب تعلّق هذه الأحكام بأسباب النزول فلمّا انقضت الأسباب انقضت الأحكام لأنّ " أحكام الشريعة تنزلت على أسباب ونتيجة لوقائع حدثت واقتضت أحكاما لحلها ، لذلك فإنّ التطبيق السليم لأحكام الشريعة يعني ربط الحكم بواقعه وتفسير القواعد على الأسباب التي تنزّلت من أجلها" (العشماوي، 1996م، صفحة 25)، فالشريعة بما احتوته من عبادات ومعاملات جاء بها القرآن ليست " سوى أثر لمقتضيات الاجتماع في عصر الرسول وفي البيئة الحجازية البسيطة في طرق عيشها وفي العلاقات بين أفرادها ، دون غيرها من البيئات ولاسيما الحديثة منها في مشارق الأرض ومغاربها " (الشرفي، 2001، صفحة 61) فمثلا العقوبة التي فرضها الإسلام على القاتل والسارق والزاني من قتل وبتر وجلد ليست مقصودة لذاتها ، ويمكن استبدالها بعقوبات أخرى تتماشى والأوضاع التي تعيشها المجتمعات الحديثة ، ما دام يمكن تحقيق الغرض من العقوبة وهو الردع بوسائل أخرى (الشرفي، 2001، صفحة 70). لهذا نجد تفسير الحداثيين لشعائر العبادات كالصلاة والزكاة والصوم غير توقيفي وإنّما متغيّر .

إنّ المفهوم الحداثي للتاريخية ينفي المصدر الإلهي للقرآن الكريم ويرفض كونه حقيقة مطلقة وبالتالي فلكلّ مرحلة تاريخية معارفها ، وهذا ما يصطلح عليه بالقطيعة المعرفية مع التراث بكليّته ، مناهجه ومفاهيمه وأدواته، فالتاريخية الحداثية لا تؤمن بعموم واستمرارية وإطلاق الشرائع والعقائد والقوانين القرآنية، فكل شيء نسبي ومؤقّت لأنّ التاريخ والواقع واللغة والثقافة هي من تصنع النصّ الدينّي وبالتالي فالنصّ تابع لهذا الواقع وهذا التاريخ .

4،2. الـتأويل أو الهرمونيطيقا :

الهرمونيطيقا مصطلح غربي يمتاز بتعدّد مفاهيمه إذ لا يمكن حصره في تعريف واحد ومحدّد وهذا راجع لتطوّره ، لكن مفهومه الذي يخدم هذه الدراسة هو التأويل الحرّ والذاتي غير الخاضع لأيّ ضوابط أو قواعد ، ولقد قامت هذه التأويلية الهرمنيوطيقية على عدّة أسس وظفت لقراءة النصوص الدينية والأدبية ومن أهمّها (النعيمي، 2016، صفحة 165) :

– انعدام القراءة البريئة فكلّ قراءة للنصّ هي قراءة محتملة ، فلا وجود لقراءة صحيحة للنصّ لأنّها قراءة قائمة على الشكّ من أجل الوصول إلى الحقيقة .

– موت المؤلّف بحيث ينقضي دوره بكتابة النصّ وتأتي مهمّة القارئ في استنباط المعني دون حاجة للرجوع إلى المؤلّف ومراده من وراء نصّه.

– إلغاء مقصدية النصّ وهي نتيجة حتمية لموت المؤلّف ، فوجوده يعني وجود المقصد وموته هو إلغاء لهذا المقصد، وهذا سيفضي إلى انفتاح النصّ أمام لا نهائية الدلالة.

– التناص: أي أنّ النصّ يتألف من كتابات متعدّدة تنحدر من ثقافات عديدة ، فهو شبكة من النصوص المتداخلة ، فالمؤلف يتأثّر في كتابته لنصّه بنصوص أخرى نشأت في بيئته ، والقارئ كذلك حين قراءته يستحضر نصوصا أخرى تختلف عن بيئة المؤلّف .

– الفراغ: والمقصود بالفراغ هو الكشف عن المعنى الذي لا تبوح به السطور أي المعنى الباطن غير الظاهر.

إنّ هذه الأسس والمنطلقات طبّقت بحذافيرها على النصّ القرآني ، وبالتالي فإنّ المقصود بالتأويلية الحديثة في الفكر العربي هو تحرير النصّ الديني (القرآن الكريم) من المفاهيم التقليدية الثابتة " لأنّ القرآن هو عبارة عن دلالات احتمالية وليست يقينية نهائية مقترحة على كل البشر ، وهو بذلك يثير قراءات وتأويلات مختلفة بقدر اختلاف جمهور المتلقين" (مصطفى، 2019م ، صفحة 253)، أي أنّ النصّ القرآني ليس له مفهوم واحد ومحدّد يصلح لكل زمان ومكان وإنّما يتغيّر هذا المفهوم بتغيّر القارئ ، فلكلّ قارئ مفهومه الخاص والمقنع بالنسبة له لا لغيره .

لهذا فالتأويل عند الحداثيين يعني " أنّ الحقيقة لم تقل مرّة واحدة ، وأنّ كل تأويل هو إعادة تأويل، أو يعني كما في الحالة الإسلامية أنّ الوحي لا يمكن القول فيه مرّة واحدة وفي مطلق الأحوال فإنّ التأويل ينبني على الفرق والتعدد ويفترض الاتساع في اللفظ وفيض المعنى ، لذلك من غير الممكن أن تكون الحقيقة أحادية الجانب ، أو يكون التأويل نهائيا فالنصّ لا يتوقف من كونه محلا لتوليد المعاني واستنباط الدلالات ، ولا مجال لأحد أن يقبض على حقيقته " (حرب، 2007م ، صفحة 17)، فلا يمكن معرفة مراد النصّ ودلالته ، لأنّ المقصد هو ما يريده القارئ لا النصّ ، فيصبح بذلك نصّا مفتوحا لا يمكن الالمام بحقيقته لتعدّد تفسيراته ولانهائية معانيه .

إنّ مفهوم التأويل عند الحداثيين يختلف تماما عن مفهوم التفسير سواء من حيث المضمون أو من حيث الخصائص والمميّزات ، لهذا نجد بعضهم يفرّق بين المصطلحين على اعتبار أنّ التفسير هو التمسّك بفهم السلف للقرآن ، في حين أنّ التأويل هو تجاوز لهذا الفهم التقليدي إلى فهم جديد يتماشى مع واقع وهموم العصر فالاعتقاد بأنّ النصّ " صالح لكلّ زمان ومكان لأنّه يحتوي كل الحقائق ويعدّ جماعا

للمعرفة التامّة ...يتناقض تماما مع القول بضرورة اعتماد المفسّر على المأثورات المروية عن الجيل الأوّل أو الجيل الثاني على الأكثر ، والوقوف عند فهمهم وتفسيرهم للنصّ" (أبو زيد، 1983، صفحة 11) ، فالقول بوجود التفسير الواحد والصحيح للنصّ القرآني ، والموروث عن فهم السلف يتعارض مع سمة الاستمرارية والصلاحية الدائمة للقرآن ، لأنّ الاعتماد على المأثور في فهم القرآن هو حكم عليه بالتحجّر ولّا واقعية .

إنّ من خصائص التأويل في الفكر الحداثي العربي كذلك ضرورة عزل النصّ عن قائله حتى يفقد قداسته وسلطته على القارئ ، فيتسنّى للقارئ بذلك الكشف عن المعاني الباطنة والمسكوت عنها في النصّ لأنّ " مهمّة القارئ الناقد أن لا يأخذ بما يقوله النّص مهمّته أن يتحرر من سلطة النّص لكي يقرأ ما لا يقوله ، ولكن انطلاقا ممّا يقوله وبسبب ما يقوله ، فالنصّ يحتاج إلى عين ترى في ما لم يره المؤلف وما لم يخطر له " (حرب، نقد النصّ، 2005 ، صفحة 22) ، وهذا ما يسمّى بالقراءة بين السّطور وعدم الاكتفاء بظواهر النصوص .

إنّ الناظر في هذه المقاربات لمفهوم التأويلية الحديثة يرى أنّها نسخة مطابقة للنسخة الغربية من حيث مبادئها وأسسها ، فهذه الأخيرة تحاول تجاوز أزمة القراءة التقليدية للنصوص الدينية ، وتخليصها من التفسير الوحيد الذي لم يعد يخدم المرحلة المعاصرة .

4،3. الأنسـنة :

تقوم الأنسنة على مبدأ الذاتية أو المركزية ، أي أنّ الإنسان هو مركز الأشياء ومحورها وقد أخذت دورا أساسيّا في القراءة الحداثية للقرآن الكريم وذلك من خلال إخضاع النصّ لذاتية القارئ ، فالحقيقة هي ما يريده القارئ لا النصّ ، إذ لا وجود لمعرفة مطلقة أو متعالية وبالتالي فالأنسنة نزعة تقوم على تحرير الإنسان من أي مرجعيّة مقدّسة ، وتجعل منه " الفاعل الاجتماعي الذي يقرر مصيره بنفسه ، أي أنّ الإنسان هو المركز ، وهو المرجع وهو المنتج للحقيقة ، فالأنسنة تقوم على تحرير الذات الإنسانية من كلّ أشكال الاستلاب والتبعية في علاقتها بذاتها .. وبالعالم بشكل عام ..والأنسنة في جوهرها هي الانتقال من عالم يسيطر فيه المقدّس إلى عالم يسيطر فيه الانسان " (مصطفى، 2013 ، صفحة 155)

إنّ هذا المفهوم للأنسنة نتج عنه مسألة التفريق بين الخطاب المتعالي والخطاب الشفوي والخطاب المكتوب ، فالقرآن الكريم قد فقد قدسيته وتأنسن بمجرّد مفارقته للسماء ونزوله على النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وهذا المعنى يؤكّده نصر حامد أبو زيد بقوله :" أنّ النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة ، والمصدر الإلهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن هذه القوانين لأنّها تأنسنت منذ تجسّدت في التاريخ واللغة وتوجّهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر " (أبو زيد، 1994م، صفحة 119)، وبالتالي

فالأنسنة لا تعترف بالمصدر الإلهي للقرآن ، وتُخضع كلّ النصوص لذاتية القارئ ونقده دون تفريق بين نصّ ديني أو أدبي ، فكلّها سواء لأنّها موّجهة للإنسان أصلا .

لهذا فإنّ الوحي أو بالأحرى القرآن الكريم في المنظور الحداثي هو " نظرية في الإنسان وقصد نحوه .. هو وصف للعالم وللإنسان في العالم ، وصف واقعي حسّي ، بديهي وجداني ، وليس قصدا من الإنسان نحو الله " (حنفي، 1977، صفحة 87/1) . وبناء على هذا وجب علينا الاهتمام بما يريده الإنسان وليس ما يريده الله من الانسان !

إنّ ما يلخّص مفهوم الأنسنة هو مبدؤها الذي يقوم على الانتقال من مركزيّة الذات الإلهية إلى مركزية الذات البشرية ، وقد صرّح بذلك حسن حنفي عندما قال : " إنّ مهمّتنا هي أن ننتقل بحضارتنا من الطور الإلهي القديم إلى طور إنساني جديد ، فبدلا من أن تكون حضارتنا متمركزة على الله تكون متمركزة على الإنسان ...وتحويل قطبها من علم الله إلى علم الإنسان ...إنّ تقدّم البشرية مرهون بتطوّرها من الدّين إلى الفلسفة ، ومن الإيمان إلى العقل ، ومن مركزية الله إلى مركزية الإنسان ، حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال وينشأ المجتمع العقلي المستنير " (عمارة، 2012 ، صفحة 110).

إنّ مناهج القراءة الحداثية عديدة ولا تنحصر في التاريخية ، والتأويلية الحديثة ، والأنسنة ، فهناك البنيوية والتفكيكية والألسنية والسميائية ، وكلّها متداخلة فيما بينها ومترابطة ببعضها ، فلا يمكن الفصل بينها بأي شكل من الأشكال ، وإنّما يلزم الأخذ بها جملة واحدة حتّى تتحقق أهداف القراءة الحداثية المعاصرة .

5. نقد القراءة الحداثية للقرآن الكريم .

لا ننكر أنّنا نعاني من أزمة فكرية سببها الفراغ الفكري الذي ملأه الفكر الحداثي ، وإن لم يكن هذا الأخير فغيره ، حتى يستعيد الفكر الإسلامي موقعه ويقوم بوظيفته فيمنع أي اختراق أو استلاب ، والإقرار بالمشكلة هو بداية الإصلاح والتصحيح ، لكن الحلّ لا يكون بتبني مناهج غربية لا علاقة لها بخصوصيتنا الإسلامية ، وإنّما بالعودة إلى منابعنا التي نستسقي منها معارفنا ، فهناك ضرورة ملّحة لإعادة قراءة تراثنا وفهم قرآننا على ضوء قراءة سلفنا لأنّ المشكلة فينا وليس في فهم أسلافنا !

لقد قامت الحداثة العربية بدافع الثورة على الجمود والتقليد الذي يعاني منه الفكر الإسلامي فـ " مسألة التقليد من أهمّ المسائل التي ينتقدها الحداثيون ، ويسمّون الخطاب الاسلامي بأنّه خطاب تقليدي غير مبدع ، فإنّ هذه السمة ذاتها هي ما يمكن أن يوصف به الخطاب الحداثي بنسخته العربية ، فإذا كان الإسلامي تقليدا للماضي وامتدادا له ، فإنّ الحداثي تقليد لماض قريب هو الحداثة الغربية " (الحارث،

2013، صفحة 62) ، فأين الجديد الذي قدّمته الحداثة للخروج من أزمة التقليد هذه وهي قد نسخت لنا التجربة الغربية دون إخضاعها لدراسة نقدية وتكييفها لتتلاءم مع مقوّمات المشروع العربي الاسلامي للتحديث !!

إنّ تاريخنا الحضاري الإسلامي لم يعرف مشكلة اللاهوت الكنسي التي استدعت هذه المناهج الغريبة القائمة على القطيعة مع كلّ ما هو ديني ومقدّس ، إذ ليس من العقل والحكمة أن نستورد مشكلة غريبة عنّا حتى نستورد لها هذه الحلول البعيدة عن روح الإسلام كما ليس من العقل والحكمة أن نحيل إسلامنا الذي هو الحافز على تقدمنا ونهوضنا إلى مستودع التاريخ (عمارة، 2010، صفحة 180) .

لم يعرف الإسلام ما يسمّى بسلطة رجال الدين ، ولم يكن يوما عدوّا للعلم والعقل ، بل على العكس تماما لا يخلو القرآن الكريم من الآيات التي تدعو إلى التفكّر والتدبّر والاجتهاد لكن مع التزام الضوابط الشرعية لذلك ، لأنّ العقل مداركه محدودة ولابدّ له من قاعدة تحكمه ومرجعية توجّهه حتى يصل إلى الحقيقة ولا يزيغ عنها. لقد " وقع الحداثيون في خلل منهجي بخروجهم عن الموضوعية عندما قاموا بمساواة النصّ القرآني الإلهي بالنصّ الأدبي البشري ، فالعقل يستطيع تحليل النصوص البشرية مهما كانت مكانة مؤلفها أو كاتبها ، لكن لا يمكن اللحاق بالنصّ القرآني وتحليله ، أو تعريضه للحفر المعرفي لمعرفة أصوله الأولى، لأنّ مصدر القرآن متعالي له قدسيته ، متعالي عن الظروف الزمانية والمكانية ، بل هو من يحدّد مسار هذه الظروف " (النعيمي، 2016، صفحة 291) ، وهذا ما لم يستطع الحداثيون استيعابه وفهمه فالفهم أدقّ وأشمل من العلم ، والإيمان بالمصدر الإلهي للوحي وبقدسيته ليس ضرورة أو واجب ، بل هو عقيدة لا يصحّ الايمان ولا التفكير ولا الابداع دون الانطلاق منها والعودة إليها .

من التناقضات التي وقع فيها الفكر الحداثي أنّه بنى مشروعه في إعادة قراءة التراث على قاعدة أساسية تقوم على " استحالة أن يُستحضر الماضي بقوانينه المعرفية وقواعده المنهجيّة لقراءة الحاضر بحسب منطق التاريخية ، ثمّ يعود ليقرأ هو الماضي بقوانين وأدوات الحاضر المعرفية " (القرني، 1434هـ، صفحة 476) ، وبناء على هذه القاعدة لا يمكننا أن نُخضع النصّ القرآني إلى مناهج معاصرة مادمنا نرفض فهمه وتفسيره وفق منهج وقواعد السلف .

إنّ القراءة الحداثية للقرآن الكريم جعلت من التأويل القاعدة وليس الاستثناء وعمّمته على كلّ نصوص القرآن سواء ما كان منها في الشرائع أو العقائد ، في الثوابت أو المتغيّرات ، في أخبار عالم الغيب أو عالم الشهادة (عمارة، 2010، صفحة 182). مع أنّ الأصل أو القاعدة هي الأخذ بظواهر النصوص وما جُوّز التأويل إلّا لما استُشكل منه ، واستدعى الاجتهاد الذي هو" طوق نجاة العقل المسلم من هاوية

الجمود ومن مستنقع التاريخية جميعا ، وهو السبيل إلى الإقلاع الحضاري ، والتجديد الفكري ، انطلاقا من ثوابت الدين ، ومواكبة للمتغيّرات ، واستجابة للمستجدّات " (عمارة، 1998م ، صفحة 93).

إنّ في الدعوة إلى تاريخية النصّ الديني تجاهل للقاعدة التي أجمع عليها علماء الأمّة باختلاف مذاهبهم وهي قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما أنّ أسباب النزول في الآيات القرآنية هي مناسبات للنزول وليست أسبابا اختصّت بها أحكام معيّنة لحقبة زمنية معيّنة (عمارة، 2010، صفحة 164) ، فمن غير المعقول أن نحصر معاني القرآن الكريم في أسباب لم تستوفي كلّ آياته ، وإنّما اختصّت بجزء بسيط منها ، وإلّا كنّا أمام أسباب لا حصر لها ولا نهاية !! وهذا ما يفقد القرآن قيمته من حيث أنّه دستور جامع للقواعد والكليّات ، لا للتفاصيل والجزئيات .

6. خاتـمة .

نلخص في ختام هذه الدراسة البحثية إلى مجموعة من النتائج ذات الصلة بالموضوع وهي على النحو الآتي :

إنّ قراءة القرآن الكريم قراءة معاصرة لا تعني أبدا التخلص من قضية عقدية ؛ والتي قوامها الإيمان بمصدريته الإلهية وغايته الربانية وتعاليه عن لغة البشر وطبيعتهم .

الأمر الآخر أنّه لابدّ من التأكيد على أنّ القراءة المعاصرة في المنظور الإسلامي لها ضوابط وقوانين تحكمها ، وهي جملة القواعد التي قرّرها علماء الأصول والمتخصّصون في علوم القرآن قديما وحديثا ، وهي بمثابة شروط للعملية التأويلية سواء ما تعلّق منها بالمجتهد الذي يمارس التأويل أو بالتأويل نفسه .

كما أنّ نتائج القراءة المعاصرة للقرآن الكريم أدّت إلى طرح شبهات كثيرة حول مصداقيته، فطعنت في جمعه وتدوينه وترتيبه ، وفرّقت بين القرآن الشفوي والكتابي ، وقامت بذلك باجترار دعاوى المستشرقين من قبل وإعادة طرحها من جديد مع أنّ علماء الإسلام قد تصدّوا لها وفنّدوها ، كما استندوا في ذلك على بعض أقوال الشيعة والمعتزلة الباطلة والتي صدرت منهم مع اعتقادهم بقدسية القرآن وإيمانهم به ، فكان خطؤهم أهون وأخفّ ممّا وقع فيه الحداثيون لأنّه لم يلمس أصول الإيمان وثوابته.

وفي الأخير لنا أن نتساءل أين هذه النهضة – أو على الأقل مقدماتها وبوادرها – التي أحدثتها أو ستحدثها القراءة الحداثية ؟ وأين مواكبتها للمستجدّات والمتطلّبات المعاصرة ؟ فأي خدمة هذه للواقع التي

تجرّد الإسلام من مقومّاته وتقتل الهوّيّة العربية الإسلامية ، وتجعل من الدين إديولوجيا ، ومن العقائد تصوّرات وخيالات ، ومن الشرائع أشكالا وطقوسا !!

7. قائمة المراجع

1. أبو زيد ,ن .ح .(1995) .النص والسلطة والحقيقة .بيروت :المركز الثقافي العربي.

2. أبو زيد ,ن .ح .(1983) .فلسفة التأويل :دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي .بيروت : دار الوحدة للطباعة والنشر.

3. أبو زيد ,ن .ح .(2014) .مفهوم النص .بيروت :المركز الثقافي العربي.

4. أبو زيد ,ن .ح .(1994) .نقد الخطاب الديني .سينا للنشر.

5. الحارث ,ف .ع .(2013) .الحداثة وموقفها من السنّة .دار السلام.

6. الشاطبي ,إ .ب .(1997) .الموافقات ، تحقبق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، .دار ابن عفان.

7. الشرفي ,ع .ا .(2001) .الاسلام بين الرسالة والتاريخ .بيروت :دار الطليعة.

8. القرني ,م .ب .(1434) .موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الاسلام .مركز البحوث والدراسات.

9. القرني ,م .ب .(1434) .موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الاسلام .الرياض : مجلة البيان.

10. النعيمي ,م .س .(2016) .القراءة الحداثية للنصّ القرآني وأثرها في قضايا العقيدة .دار مصر العربية للنشر والتوزيع.

11. النكر ,س .(2013) .سؤال المعاصرة والشرعية في قراءة النصّ القرآني ، تقديم محمد عمارة .دار السلام.

12. حرب ,ع .(2007) .التأويل والحقيقة قراءات تأويلية في الثقافة العربية .بيروت :دار التنوير .

13. حرب ,ع .(2005) .نقد النصّ .المغرب :المركز الثقافي العربي.

14. حنفي , ح .(1977) .من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية) .دار التنوير للطباعة والنشر والمركز الثقافي العربي.

15. عمارة ,م .(2010) .إزالة الشبهات عن معاني المصطلحات .دار النشر للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.

16. عمارة, م1998) .م .(النصّ الإسلامي بين الاجتهاد والجمود والتاريخية .دار الفكر المعاصر.

17. عمارة, م .(2012) .قراءة النصّ الديني بين التأويل الغربي والتأويل الإسلامي .دار السلام.

18. مالك بن أنس, ب .م .(1412) .*موطأ الإمام مالك ، المحقق بشار عواد معروف –محمود خليل ، باب النهي عن القول بالقدر* .مؤسسة الرسالة.

19. مصطفى, ك .(2013) .*الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون* .منشورات الاختلاف.

20. مصطفى, ك2019) .م .(*الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون* .منشورات الاختلاف .